الوصف فى شعر امرئ القيس

بقلم السباعى السباعى بيومى

الأستاذ بدار العلوم

٣

الطبيعة فى أنس الغيث ورعشة الأمل

عاشت العرب جاهليتها فى جزيرة تكاد تتقاسمها الصحارى والنجاد، فليس فيها على سعتها نهر يجرى ولا سهل يزرع، كما للأمم حولها، وكل ما فيها من أسباب عيش جبال تتصيد بعض الغيوث والأمطار، فتجريها إلى أودية تتحول معاشب ومكالىء ترعاها ماشيتهم، وعلى تلك الماشية هم يعيشون. فهى بلاد يحيا أهلها على المطر، لا يزالون يتشوفون برقه فى الجو المتلبد، ويتسمعون رعده فى الريح المزجى؛ أسوأ مايسوءهم السماء تمسك ماءها فيقحطون ويجدبون، وأسر ما يسرهم السحاب يرسل غيثه فيمرعون ويخصبون. فللغيث على تلك الأرضين فضل ليس بعده فضل، وله فى قلوب أهليها منزلة لا تعدلها منزلة. وكلا الأمرين يملأ من القوم نفوسهم، ويشعر به عامهم وخاصهم، لما لهم إليه من حاجة ملحة، وعليه من رقابة دائبة.

أثر فيما أثر عنهم: أن أعرابيا شيخا خرج مع ابنة عم له يرعيان غنما، وكان ضريرا، فأحس نسمة تؤذن بمطر، وأراد أن يستبين الفتاة حال السماء فقال لها: إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى، فقالت: تريد السحب، كأنها ربرب معزى هزلى. فعلم أن هوادى

السحاب لاتزال فى صفر قطعها ووضوح ألوانها كقطيع المعزى الهزيلة ، وأن المطر آت ولكن بعد حين فقال : ارعى واحذرى . وسكت ساعة ثم كرر ما قال وأعاد السؤال فقالت : كأنها بغال دهم تجر جلالها . فعلم أن السحب قد عظمت وأطبقت حتى صارت كتلك البغال فقال : ارعى واحذرى . وبعد قليل سألها الثالثة فقالت : كأنها بطن حمار أصحر . فعلم أن غبرة السحاب قد اختلطت بحمرة خفيفة وأنه قد تدلى لثقل مائه وعما قريب سيمطر فقال : ارعى واحذرى . ثم سألها الرابعة فأنشدت :

دانٍ مسف فُويق الأرض هَيْدَبه يكاد يدفعه من قام بالراح

فأيقن أن المطر واقع فقال : انجى لا أبالك . وما أتم كلامه حتى هطلت السماء .

فاذا كان مبلغ علم عامتهم بالسحاب وآيته ، والغيث وعلامته ، على النحو الذي ذكرنا . فما بالك بخواصهم ؛ ثم ما بالك بالشعراء من هؤلاء ؛ بل ما بالك بذوى المقدرة على الوصف من الشعراء المخالطين للطبيعة الوصافين لها كشاعرنا امرىء القيس ؟!

تعرض امرؤ القيس آخر معلقته لوصف السحاب فى أحد عشر بيتا بدأها بوصفه شكلا ولونا ، ثم انتقل إلى وصفه قوة سح وشدة آثار ، وختمها بعدة تشبيهات فى تلك الآثار أبدع فيها ما شاء له الخيال .

قال يصفه شكلا ولونا :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّل

يضيء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط فى الذبال المفتل

قعدت وأصحابى له بين ضارج وبين العُذيب بُعْدَ ما متأمَّلى

فجعله حبيا مكللا . والحبى : المعترض الذى قد سد الأفق وأطبق عليه ، أو هو البطىء المار لثقل مائه ، فهو يحبو ولا يكاد يسير . والمكلل :

الذى ترا كمت قطعه بعضها فوق بعض فاعتكر لونه وبان سواده . وعمد إلى برقه الذى كان يومض فى هذه الظلمة ويختفى فجعل وميضه فى سرعته كلمح اليدين ، وهو حركتهما من منذر أو مبشر ؛ وشأن هذين أن يواليا الحركة ويسرعا فيها . وكلما أسرع البرق فى سحاب كان ذلك أدل على كثرة مائه وقرب هطوله ، حتى كانوا إذا عدوا له اثنتين وسبعين لمعة أيقنوا أن الماء فى أثره ، ثم جعل سناه فى شدة ضوئه مصابيح راهب لم يضن بالزيت على ذبالها المفتول ؛ وكل ذلك يورث الضوء قوة وشدة لمعان ، فإن مصابيح الرهبان دائما مجلوة . وإهانة السليط بالصب على ذبالها أكثر إمدادا لها . وتفتيل الذبال يجعل سريان الزيت فيها أسرع وأغزر . وبعد هذين الوصفين لمرأى السحاب أمامه انتقل يقول : إنه قعد هو وأصحابه يتأملون امتداده بين ضارج والعذيب ، ويعجبون لتناوله هذين المكانين على بعد ما بينهما فيا بعد ما يتأملون (١)

وقال فى قوة سحه وشدة آثاره :

فأضحى يسح الماء عن كل فيقة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل
على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه ... نزول اليمانى ذى العياب المحمل

فاختار أن يكون سحابا يكف ساعة ويقف ساعة ثم يعود إلى السح من جديد ، كدر اللبن يأتى شديدا عن كل فيقة ، وهى الفترة بين الحلبتين. وإذا كان السحاب على هذه الحال من الهبوب والسكون ثم الهبوب بعد ،

(١) ضارج : ماء بين اليمن جنوبا ومكة شمالا فى القرب من الجزيرة . والعذيب : واد بين المغيثة ، وهى أرض تميم جنوبا والقادسية شمالا فى الشرق من الجزيرة . فهما متقابلان فى النصف منها غربا وشرقا .

كان مظهره أشد ، وكان سيله أقوى وأمر ؛ لهذا أسند إليه قوة تكب إلى الأذقان العظيم من أشجار الكنهبل ، على ضخامة هذا الشجر جملته ؛ ولن يصل بأعاليها إلى الأرض كبا إلا إذا اقتلع جذورها من الأصول اقتلاعا . وليس أدل على عظمة سيل من أن يأخذ فى طريقه بما أخذ من أرض ما قام عليها من أمثال هذه الأشجار أخذا . ولم ينس ، وقد جعل امتداده قد طبق الأفق آنفا ، أن يمتد بصوبه فينال ما تباعد من الأرضين ، فإذا شمته يمنة ألفيته على قطن ساقطا ، وإذا ما تلفت يسرة وجدته على الستار ويذبل واقعا[1] . وهى جبال ثلاثة متباعدة الوضع طويلة الامتداد . وسحاب هذا شأنه فى سعة أفقه . وقوة صوبه ، جدير أن يتدفع سيله إلى ما تباعد عن مصابه . وهكذا كان سحاب امرئ القيس ، فقد تجاوز سيله ما ذكرنا من أماكن إلى تيماء فعقر جذوع نخيلها ، وهدم بناء أطمها ، إلا ما كان مشيدا بالجنادل منها .[2] ثم استقر ببعاعه وهو ثقله ، وما ثقل السحاب إلا ماؤه ـ فى صحراء الغبيط[3] فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . فكان بما نشر فيها من ضروب النبت وصنوف الأزهار كالتاجر اليمانى يحط رحاله فينشر من عيابه المثقلة أنواعا من الثياب مختلفة الألوان . ولليمن شهرة قديمة فى وشى الثياب وزخرفتها . وهذا تشبيه

(١) قطن : من قرى دمشق جنوبا والستار : جبل بأجأ من نجد غربا . ويذبل : جبل بنجد شرقا . وانما جعل منعقد السحاب آنفا فى الجنوب ومنحدر مائه هنا فى الشمال لأن ريح الجنوب قد أزجته الى الشمال حيث سح ، وكان حيث بدأ سحه ساقطا على مكانين ، وحيث انتهى ساقطا على واحد .

(٢) تيماء : بليدة فى طرف الشام جنوبا بينه وبين وادى القرى من الحجاز ، وهى إلى الغرب من مصب الغيث .

(٣) صحراء الغبيط : أرض لبنى يربوع غرب الكوفة ، فهى الى الشرق من نجد ، فكأن سيل المطر تناول نجدا غربا وشرقا .

بارع أمده خيال خصيب جعله ينطلق فى واد من التشبيهات أشرنا إليه قبل وذلك إذ يقول :

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل
كأن ذُرا رأس المجيمر غدوة من السيل والغُثّاء فلكة مغزل
كأن مكاكىّ الجواء غدية صُبحن سُلافا من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عُنصل

وثبير : جبيل[1] قد انهالت عليه أوائل الوبل ، وهى عرانينه ؛ فبدلت من سواده بياضا ، وترا كمت عليه ترا كما . فصار بما أحاط به من ماء غزير ، وما ظهر من أعلاه بعيدا عن هذا الماء كالشيخ يتزمل بالمخطط من الثياب ، وهى البجد . وإنما جعله شيخا ليخاف البرد ويكثر التدثر ، وجعل الملابس بجدا ، لأن الماء لم يحط بالجبل خالصا وإنما حمل معه ما حمل من أنواع نبات علته وطفت عليه فكانت كخطوط هذا النوع من الثياب . أما المجيمر[2] — وهو جبيل أقل من ثبير شموخا — فقد أخذ الماء فى علوه وارتفاعه بخناق رأسه فاستدار حوله ، وغشاه بما حمل معه من غثاء أحاط به فكان كفلكة المغزل . وهذا تصوير بارع لحظ فيه امرؤ القيس ما ذكرنا . وتخير فلكة المغزل على غيرها — مما قد يصلح للتشبيه هنا — لصغرها ، حتى إذا ما ظهر رأس المجيمر بهذا الصغر أيضا كان ذلك أدل على عظمة السيل واستبحاره . وقد انبرى بعد هذين التصويرين إلى آخرين يفوقانهما تخيلا وإبداعا ، فأما الأول فهو تصويره المكاكى — وهى طيور صغيرة ذات صفير — إذ أخذ منها الفرح صبيحة هذا الغيث كل مأخذ ، فجعلت تكثر من الطيران ذاهبة جائية صاعدة هابطة ، وهى فى كل ذلك

(١) ثبير : جبيل قرب مكة (٢) المجيمر : جبيل الى الشرق من مكة نحو مبهل ، وهى ديار تميم قبل أن ينحدروا شرقا .

تتشابك وتترامى وتكثر من الصفير والتغريد اجتلاء لهذا الأفق السمح ، وتمتعا بتلك الطبيعة الصافية ، كأنها قد سقيت الصفو من جيد الخمر صباحا فانتشت لذلك وزاد نشاطها . ثم كان ذلك الرحيق مفلفلا فحذى ألسنتها وأثر فيها فهى لذلك قد علا صوتها ، وملأ الجو صياحها . وأما الثانى فهو تصويره ضوارى الوحوش ، وقد وصل السيل فى ارتفاعه إلى أكنانها فطغى عليها وأغرقها ، ثم احتملها معه غائرة الجسوم بادية الأطراف ، فانتشرت بأرجائه وطغت عليه كالعرار ، وهو البصل البرى يقتلعه السيل ويحمله وبأصوله آثار من الطين فهى عنده وتلك السباع سواء صغر مرأى وعدم كفاح . وما كان أدقه — قاتله الله — إذ اتخذ الغدوة لحركة المكاكى والعشية لطفو السباع ، فإن أكثر ما تنشط الطير تنشط غدوة وصباحا ، وأشد مايبدو الاستسلام يبدو حيث تعدم المقاومة عشية ومساء.

هذا وما كان إبداع امرئ القيس فى وصف السحاب والغيث مقصورا على ماذكرنا من معلقته ، فقد تناوله فى غيرها محسنا ومجيدا . وهذى رائيته يصف فيها ديمة بدأت متقطعة ثم اشتدت متتابعة ، والديمة السحابة تمطر فى سكون دون أن ترى برقا أو تسمع رعدا . فاستمع إليه يقول :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر
فترى الودّ إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تعتكر
وترى الضب خفيفا ماهرا ثانيا برثنه ما ينعفر
وترى الشجراء فى ريقها كرءوس قطعت فيها خمر
ساعة ثم ابتحاها وابل ساقط الأكناف واه منهمر
راح تمريه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر
لجّ حتى ضاق عن آذيّه عرض خيم فخفاف فيسر

فعنى أول ماعنى بوصفها فى ذاتها فجعلها هطلاء ذات ثقل فى سيرها ،

وجعل فيها وطفا ، وهو التدلى والاسترخاء . والأمران لكثرة مائها . كما جعلها طبق الأرض لسعة امتدادها . ثم انتقل إلى درها فقال إنها تتحرى وتدر ، وفى التحرى تريث وقصد ، فإذا أشجذت ، أى أقلعت ، رايت الود ، وهو جبل بشرق نجد ، بادياً . وإذا درت واسترسلت أخفته فى غبرتها واعتكارها . ولكنها مع هذا الإقلاع العارض لها تصعد بمائها من المطمئن إلى المرتفع ، حتى لترى الضباب على تعالى أجحارها ثانية أكفها للسباحة والعوم غير واجدة من الأرض المنكشفة مايعفر جسومها ، وحتى لترى الأشجار المجتمعة قد غمرت سيقانها فلم يبق بادياً إلا أعاليها ، والغثاء من حولها كأنها رءوس قطعت وفيها خمرها . وكلا المعنيين لا يأتى به إلا غواص على المعانى ، ملاك للخيال هكذا دامت الديمة ساعة ثم تحولت فى الشدة إلى وابل سقطت أكناف سحابه فضعف ووهى وانهمر مأؤه . وما أدق مسلكه فى تصوير هذا الضعف فيه إذ يقول : إن ريح الصبا راحت تمريه وتمسحه لتستدر ماءه ، كما يفعل الحالب المبس ، حتى إذا ما هبط الماء إلى أسافله كما يتنزل اللبن إلى الضرع تعهده شؤبوب جنوب منفجر ، فما زال يلج فى انفجاره حتى ضاق عن موجه عرض هذه الأماكن الثلاثة التى ذكر على عظيم رحابها ، واتساع أرجائها [1].

فتلك مقطعة من غير المعلقة ، وعلى ما فيها وفى المعلقة كان ينسج امرؤ القيس فى وصف السحاب والغيث . وإنا لنرانا وقد أتينا على الأغراض الثلاثة التى انتحاها للوصف فى حياته الأولى بالمعلقة وغير المعلقة مضطرين أن نعرض لما بقى فى المعلقة من وصف الليل ، حتى نكون قد أتينا على ما فيها جميعها ، وبخاصة إذ لم يطرقه فى غيرها ، ولذا ضممناه إلى الغيث

(١) هى خيم بين المدينة وديار غطفان بقرب نجد . وخفاف : مياه كلاب بحمى ضرية وهى أرض العالية ثم يسر وهو ماء لبنى يربوع بالدهناء شرق نجد .

حين عنونا ، وهو وصف ممتع بارع ، ومع أنه لم يصل بأبياته بعض القدر الذى وصله فى كل من أغراضها فقد بلغ فيه المبلغ الذى لا يجارى ، والذى عده الشعراء مثالا يحتذى ، ومع ذلك لم يصلوا ولم يقاربوا .

قال — وقد أحسن وضعه وصلته بين الانتهاء من الريبب ، ولا يكون إلا عتمة وعشاء ، والنهوض إلى الصيد ولا يتسنى إلا بكرة وصباحا — :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغارِ الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فجعله فى شدة وطأته وإرخاء سدوله كموج البحر فى تلاحقه وشدة إطباقه ، وجعله فى امتداده وطوله كالجمل ينوء بكلكله وقد تمطى بصلبه وأردف أعجازه ، ثم يناديه أن ينجلى ، وإن بقى فى الصبح همه ، وإذ لم يجب يعجب لعدم انقضائه كأن نجومه قد شدت بالمتين من الحبال فى جبل يذبل . وكأن ثرياه ، وقد أمسكت عن الحركة وصامت ، علقت بأمراس كتان فى صم جندل . وهذا فتح جديد فتحه فولجه الشعراء من بعده ، ولكنهم كانوا على ماذكرنا من قصور . قال نابغة بنى ذبيان يحاول أن يصف الليل كما وصف :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فلم يزل لامرئ القيس الفضل عليه . ذلك بأنه جعل الليل ثابت الكواكب بآيات ساقها ، وشواهد ذكرها ، من شد نجومه وثرياه بمتين

الحبال ، فى الصخور والجبال ؛ فى حين جعله النابغة بطيئا فحسب . ولن يشفع له فى هذا البطء قوله « حتى قلت ليس بمنقض » لأن القول هنا لا يعدو مرتبة الظن إلى اليقين ، والإتطاعن والبطء الذى لا يقبل مايقبله القول من تأويل . ثم فضله أيضا بأنه إذ طلب من الليل انجلاءه لم يطلب ذلك ليخلو من الهم نهاره ، فهو دائما مهموم ، وهما عنده فى الهم سيان . وهذا إذ يقول : « وما الإصباح منك بامثل » ولكن النابغة أخلى النهار من الهم من حيث جعل الليل مريحا للغائب من الهموم حيث يقول : « وصدر أراح الليل عازب همه » وإنما طلب امرؤ القيس انجلاء الليل وإن بقى له الهم نهارا للسبب الذى عرفه عنه الطرماح وزاد فيه مازاد إذ يقول من إيضاح :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح ... بيوم وما الإصباح منك بأروح
بلى إن للعينين فى الصبح راحة ... لطارحهما طرفيهما كل مطرح

فبهذا وأمثاله كان امرؤ القيس ولا يزال المرجع الأول للشعراء ، لا يزالون به يستعينون ومنه يقبسون ، كما سنوضح ذلك فى فضله على الشعراء بعد . ولكن ذكر الليل على أن لا رجعة لنا إليه كما قلنا من قبل حبب إلينا إجراء هذه الموازنة بينه وبين النابغة فيه ، وبه أتممنا القول فى أوصافه قبل مقتل أبيه فانتظمت المعلقة كلها ، وتناولت ما تلاءم وإياها من سائر ما قال . وموعدنا العدد التالى فيما عالج من أوصاف بعد هذا الحادث الجليل ، وإلى الملتقى إن شاء الله .